بلاغة التعبير في الخطاب القرآني

أ رزيق مُحَمَّد

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف

البريد الالكتروني:rezziguemohamed@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/05/12 تاريخ القبول:2019/11/19

الملخص :

لا يختلف اثنان في أن الخطاب القرآني بما يتوفر عليه من مستويات اعجازية يعتبر المنطلق الأساسي و الفعلي لميلاد التراث الأدبي العربي بشتى تجلياته اللغوية و الأدبية ، و البلاغية و النقدية ،ينهض على منهج محروس بمعجزة بيانية، لا تُدرك مقاصدُها وأبعادُها إلا بمعرفة أسرار الأداء البياني فيها. ومن ثم كان القول بالأعجاز لخصائص في نظم القرآن أهم المناهج عند المفسرين والبلاغيين ودارسي الأعجاز. واحتل النص القرآني القيمة الفنية الأولى في اللغة العربية، وظلت قضية الأعجاز تقوم في جوهرها على تمثل المناحي الجمالية في ذلك النص المعجز.

Two do not disagree that the Qur'anic discourse, with its miraculous levels, is considered the basic and actual starting point for the birth of the Arab literary heritage in its various linguistic and literary manifestations, rhetorical and critical. . Hence, the miraculous view of characteristics in the systems of the Qur'an was the most important curriculum for commentators, rhetoric, and students of miracles. The Quranic text occupied the first artistic value in the Arabic language, and the issue of miracles remained in its essence on the representation of the aesthetic aspects in that miraculous text

نص المقال:

توطئة:

إن بلاغة التعبير في الخطاب القرآني لا تدرك إلا بمعرفة لغة القرآن وطرائقه في الأداء البياني. ونزول النص باللسان العربي المبين اقتضى أن تدرك حقيقة الوحي فيه من خلال لغته. ودعي المسلمون من أول فترة من نزوله إلى تدبره باعتباره آخر رسالات السماء إلى الأرض. والمصدر الأول للحقيقة في الإسلام فضل القرآن محط أنظار المسلمين وعنايته يتدارسونه ويتعمقون قضاياه، "إن أحق العلوم بالتعلم و أولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ، و معرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى. . .و قد علمنا أن الإنسان إذا اغفل علم البلاغة،و اخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف و براعة التركيب "[1].

وقد اهتم علماء العربية بجماليات النص القرآني، فتتبعوا أسرار بلاغته فيه وكشفوا عما يتميز به أسلوبه من ثراء وخصوبة في مناحي القول، مما جعل منه منبعا متجددا ينفذ إلى أعماق النفس فيشيع فيها حركة الحياة. فقد استمرت العناية بالبلاغة القرآنية في التاريخ الإسلامي، ولم تنقطع يوما، وقد تخفت حينا في بعض كتب التفسير، غير أنها ظلت متوهجة في التراث البلاغي وكتب الإعجاز خاصة.

الاعجاز بين البلاغة والنقد الادبي:

وإن المتتبع للدراسات النقدية والبلاغية في التراث العربي يجد أن دراسة الخصائص الأسلوبية للنص القرآني ، قد أفادت تلك الدراسات وأثْرَتْها بنظراتها وتأملاتها ، غير "إن البلغاء مهما أوجَفُوا من رِكابِهم ، ومهما اجلبوا بخيلهم

ورجلهم لا يبلغ الواحد منهم بعمله غاية أمله ، و إنما يصل كما قلنا إلى كمال نسبي ، بقدر ما يحيط به علمه، و ما يؤديه إليه إلهامه في الحال ، أما الوفاء بالمعنى حق وفائه بحيث لا يخطئه عنصر منه و لا حلية من حلاه ، و لا ينضاف إليه عرض غريب عنه يعد رقعة في ثوبه ، و لا ينقلب فيه وضع من أوضاعه يغض من حسن تقويمه ، و بحيث لا سبيل فيه إلى نقض أو اقتراح جديد ، فذلك أمر لا يستطيع أن ينتحله رجل اكتوى بنار البيان ، فضلا عن أن ينحله لإنسان غيره"[2].

وأرى أن محاولة إدراك المعجز في العبارة القرآنية قد هيأت الأذواق والأوهام لتقويم التجربة الفنية الإنسانية. وتعددت قراءات النص القرآني وتنوعت ألوان تفسيره على مر العصور.

و مما لا شك فيه أن القرآن جمع في أسلوبه كل ضروب البيان ، فكان هذا من بين الحوافز التي شجعت علماء اللغة و الأدب، و وجهت أنظارهم إلى فنون الأسلوب سواء كان ذلك في القرآن أو الشعر أو في النثر ، إذ انبثق نور هذه الجهود اللغوية والأدبية كلها من الذكر الحكيم ، وهي في عمومها مجهودات تسعى إلى تحسس مظاهر الأدبية بعدة إجرائية جادة حققت لمثل هذه المقاربات مشروعية علمية، و إنما حظي القرآن الكريم بكل هذه العناية و الاهتمام لأنه كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبيّ الأعظم .

كانت الدراسات النحوية في الغالب تدور في مجال "لا يهبط به عن مستوى المباني الصرفية ، و لا يرقى عن مستوى الجملة المفردة التي تتسم بتمام الفائدة ، . . . كذلك فقه اللغة يدور أيضا حول الكلمة المفردة في علاقتها بأختها ، وعلاقتها بالمعنى وعلاقتها بالاستعمال"[3]،و قد عول على النحو ليكون معينا على صحة تلاوة القرآن الكريم ، و على اللغة لتأكيد عروبته ، و فصاحة نصه.

و مع أن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فقد تسامى في معارج الإعجاز، وسحر بيانه واستولى على القلوب والأفكار، ينتشي المؤمن و هو يتمعن آيات الذكر الحكيم، و قد ساعده على ذلك الدوق العربي السليم " لذا لم يحدث في تاريخ البشر إن امة من الأمم اعتنت بكتاها السماوي كما اعتنت أمة الإسلام ، و لم ينل كتاب من الرعاية والحفظ والإجلال و الإكبار مثل الذي ناله هذا الكتاب المجيد معجزة الإسلام الخالدة و حجة البالغة ودعوته إلى الناس أجمعين "، و هكذا نحا العلماء منحى يعولون فيه على استجلاء مظاهر الإعجاز .

و لم ينفرد موضوع الإعجاز في بداية الأمر بالنظر و الاستقصاء ، و إنما ورد ضمن قضايا لغوية مختلفة ،سرعان ما راحت تستقل هذه القضايا البلاغية عن بعضها البعض ابتداء من القرن الثالث هجري مع ظهور تيارات ثقافية متباينة عكرت صفاء العربية ، فبدأ الناس يفكرون بطريقة عقلية مجردة عن التذوق الجمالي و إدراك المعاني بالسليقة الصافية .

اتجه نفر من علماء العربية إلى التأليف في بيان القرآن ونظمه و إعجازه ، و اجتهدوا في استجلاء مظاهر الإعجاز و الفنية فيه على أساس من بيان أسلوبه ، وطرق تعابيره المختلفة، كانت اغلب هذه الدراسات تركز على حقيقة الإعجاز ونظمه و قد امتزجت هذه الدراسات بمحاولات أخرى قادتها بعض الفرق الكلامية كالمعتزلة فقد" نزل القرآن الكريم في أسلوب لا يضارعه أسلوب ، فلا هو شعر و لا هو سجع و لا هو مزاوجة و لا هو نثر مرسل و لا خطابة ، إنما هو نظم رائع و ألفاظ عذبة و معان سامية ، و جلال وروعة جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، و فصاحة شتى خصائص النظم ، و استوفى كل عناصر الإعجاز "[4].

نظرية الاعجازعند البقلاني ت403ه:

و من علماء العربية و الإسلام الأجلاء الذين ابلوا بلاء حسنا في بلاغة القرآن أبو بكر محمد ابن الطيب الباقلاني (ت403ه) صاحب إعجاز القرآن ، وهو من المؤلفات الأولى الشاملة لموضوع إعجاز القرآن .

كان الباقلاني يؤمن أن أساس الإعجاز في القرآن الكريم ينهض على البلاغة ، لذا اشترط معرفة البلاغة العربية للتمييز بين مراتب الكلام ، فهي سبب في إدراك إعجاز القرآن و وسيلة للولوج و الوقوف على حدود النص القرآني و تجلياته ، فالباقلاني بهذه الرؤية يضع منهجا منظما يرتكز على أسس من شانها تعليل الظاهرة القرآنية ، فاختار النظم لإثبات الإعجاز ، و استعرض أسرار العربية من خلال عرض أساليبها و نحوها وملاحظاتها البلاغية لأنها المرتكز الأساس الهادي إلى دلائل الإعجاز .

لقد أفاد الإمام الباقلاني كثيرا ممن سبقوه ، و الظاهر انه كان ينكر على كثير من المفسرين قلة العدة ، و محدودية الإدراك و الفهم ، بل ينكر عليهم عدم بسط القول في الإبانة عن وجه الإعجاز في القرآن ، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه " من القول في الجزء ، و دقيق الكلام في الإعراض ، و كثير من بديع الإعراب وغامض النحو"[5] ، وبعد تقديم طويل تناول مجموعة من قضايا الإعجاز استهلها بالحديث عن نبوة النبي صلى الله عليه و سلم ، و بين أن القرآن هو معجزة هذه النبوة، يقول " فأما الذي يبين ما ذكرناه من ان الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن ، وبني أمر نبوته عليه ... فمن ذلك قوله تعالى " الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ "[6]، فاخبر انه انزله ليقع الاهتداء به ، و لا يكون كذلك إلا و هو حجة ، و لا تكون الحجة إن لم تكن معجزة " [7] .

يرى الإمام الباقلاتي أن القرآن الكريم معجز من الوجوه التالية :

1. الإخبار عن الغيوب ، و ما هو خارج عن قدرة البشر.

2. الإنباء عن قصص الأولين و سير المتقدمين ، و أن النبي صلى الله عليه و سلم

أُمِّيٌ ، و لم يطلع على كتب الأقدمين.

3. براعة التأليف و النظم و الرصف، ثم فصل هذا الاجمال بضرب الأمثلة

الكثيرة على كل وجه من الوجوه و إن هذا النظم يتجاوز قدرة البشر[8] .

و تتلخص النظرية في الإعجاز إلى مستويات ثلاث :

أ. عرض الفكرة عرضا بسيطا مع التأكيد على صحة الفكرة بشواهد من نص القرآن و انه حقا كتاب الله منزل على نبيه، و انه آية محمد صلى الله عليه و سلم و معجزته الخالدة .

ب. إثبات عجز العرب عن الإتيان بمثله على رغم تحديه لهم " الذي بني عليه الأمر في تثبيت معجزة القرآن انه وقع التحدي للإتيان بمثله ، و أنهم عجزوا عنه بعد التحدي "[9].

ج. استنتاجات عامة هي خلاصة نظرياته في الإعجاز التي عرضها " فأما نهج القرآن و نظمه و تأليفه و رصفه ، فان العقول تتيه في جهته ، و تحار في بحره وتضل دون وصفه . نحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض ، و تستولي به على الأمد ،و تصل به إلى المقصد ،و تتصور إعجازه كما تتصور الشمس ،و تتيقن تناهي باغته كما تتيقن الفجر ، و اقرب عليك الغامض ، وأسهل لك العسير "[10] .

لقد بنى الباقلاني نظريته في الإعجاز و انتهى إلى قوله :" . . . والوجه الثالث انه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة على تصرف وجوه و اختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم ، و مباين للمألوف من ترتيب خطاهم ، و له أسلوب يختص و يتميز في فصوله عن أساليب الكلام المعتاد "[11].

إن الوصول إلى سر الإعجاز القرآني ، و فهم أساليبه الرفيعة لا يتم إلا عن طريق معرفة أساليب البلاغة و فنونها ، و قد تسلح الباقلاني بكل الأسباب التي مكنته من ذلك ، معولا كثيرا على الإقناع العقلي ، و الجدل الكلامي .

فالقرآن الكريم الفصيح البليغ ، يخلو من التفاوف في مستوى الفصاحة في الآيات والصور مما يؤكد سمو النظم القرآني ،و عظمة أسلوبه ،يتجلى ذلك من خلال معارضة النص القرآني للنصوص العربية التي كان العرب يفتخرون بها في مجال الشعر والنثر، و بعد المقارنة يبرز القرآن في أسلوب واضح الإعجاز، متميز الخصائص رائع النظم مشرق العبارة ، بليغا في اختيار مفرداته ، هذه الخصوصية كانت من أقوى حجج الباقلاني ، و تنهض هذه الحجج على ما يلي:

- " ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة و الغرابة ، والتصرف البديع ، و المعاني اللطيفة و الفوائد الغزيرة و الحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة و التشابه في البراعة على هذا القول و على هذا القدر. . . .
- إن عجيب نظمه و بديع تأليفه لا يتفاوت و لا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص ومواعظ و احتجاج وحكم و إحكام و اعذرا و إنذار و وعد و وعيد و تبشير و تخويف . . . .

- إن القرآن الكريم على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف و المتباين كالمتناسب ، و المتنافر في الإفراد إلى حد الآحاد ،وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة و تظهر به البلاغة،و يخرج به الكلام عن حد العادة و يتجاوز العرف . . . .
- و هو أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس و الجن ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا . . . .
- و هو أن الذي ينقسم إليه الخطاب من البسط و الاقتصار و الجمع ، و التفريق، و الاستعارة، و التصريح و التجوز، و التحقيق، و نحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة و الإبداع و البلاغة .
- و هو أن الكلام بين فضله و رجحان فصاحته بان تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام،أو تقذف ما بين شعر فتأخذه الأسماع و تتشوف إليه النفوس .

. . "[12] .

لقد استقر رأي الباقلاني بعد استقراء أغلب الدراسات التي سبقته على إثبات عدم التفاوت في القرآن الكريم بخلاف الأدب بعد تعويله على النظم الذي يدل على إعجاز القرآن الكريم " و ليس انعدام التفاوت وحده الدال على إعجاز القرآن ، بل هناك أمران آخران: أولهما : الطول الذي استوعبه ذالك النظم دون تفاوت ، و ثانيهما أن هذا النظم قد ورد على غير المعهود من نظم الكلام جميعه عند العرب . وعرض نماذج من نثر البلغاء و شعر الشعراء لإدراك التفاوف ، و بين أن ما استأثر بتفصيل النقاد في الشعر لا يبلغ شيئا بجانب بلاغة القرآن ، و لذلك درس قصيدة لامرئ القيس ، وأخرى للبحتري ، ثم سورة من القرآن الكريم . . . و هذا الذي ميزه عن غيره من الدارسين ، فقد وازن بين المعجز من كلام الخالق ، و بين الرائع من كلام المخلوق ، و قد كان معجبا بكل كلمة و معنى و أسلوب في القرآن وقف عنده "[13] .

الملاحظ أن الإمام الباقلاني قد محص الدراسات اللغوية و الأدبية و النحوية السابقة ، فكان إعجاز القرآن زبدة هذه الدراسات .

إن كتاب (إعجاز القرآن) كان و لا يزال من مصادر كتب النقد الأولى رغم ما فيه من بحوث و دراسات عن البلاغة و الإعجاز ، و قد كان الباقلاني كما كانت الحال بالنسبة لعلماء عصره يركزون على الأسلوب وسلامته من الخطأ في اللغة أو الإعراب أو التصريف للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم ، و ما يصل بكل ذلك و يمس صميم البيان و الأداء ، تفاديا لأخطاء الملكات التي بدا يدب إليها العي و القصور بسبب المستعربين و الاختلاط بهم[14] .

نظرية الاعجاز عند عبد القاهر الجرجاني ت 470هـ

يمكن اعتبار الإمام أبا بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني (ت470هـ)

قمة من القمم العالية التي قدمت مفاهيم أكثر دقة و علمية لنظرية النظم ، عندما وظف مجموعة أدوات إجرائية ساعدت على قراءة النص وتشفيره ،وكشف عن إبعاد جديدة لمفهوم النظم من خلال العمل على تأصيل مجموعة من القواعد التي تنهض عليها نظرية النظم في كتبه دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة و الرسالة الشافية.

بحث الإمام الجرجاني في البلاغة و وجوهها و أساليبها للارتقاء بالذوق البلاغي لدى المتلقي ، و من ثم ليضع يده على موطن البلاغة في كلام بليغ سواء كان هذا الكلام شعرا أو نثرا ، و يبرز وجه الحسن في الكلام من خلال أمثلة مختارة، ثم يلتفت بالاعتماد على تلك المقدمات و الأمثلة إلى إعجاز القرآن الكريم الذي كان أثره واضحا في تحديد مسارات الدراسات البلاغية عموما ، و عند الجرجاني على وجه الخصوص ، فالأدب صناعة ، و

البلاغة عناصر لهذه الصناعة ،" و كما كان للقرآن دور واسع و تأثير كبير في نشأة البلاغة ، كذلك كان الاهتمام بمعرفة أوجه إعجازه مدعاة إلى البحث فيها "[15].

و لعل الذي دفع الجرجاني إلى الكتابة في الموضوع الاعجازي اتجاه أغلب من سبقوه من العلماء إلى الحديث عن الجانب اللفظي ، لذلك حصر جهده و كتاباته في إبراز جانب المعنى ليقرر " إن المدار في الكلام على المعاني لا على الألفاظ ،

و إن الألفاظ مجرد هياكل تقتفي آثار معانيها " [16] ، وربط إذا بين كثير من المجازات البلاغية و الفنون البديعية ، لذلك قرر أن الألفاظ المفردة بحد ذاتها لا ميزة لواحدة منها على الأخرى،و إن المعاني بحد ذاتها لا وجود لها بدون الألفاظ،و لذلك لا ينبغي الحكم عليها مفردة بل مجتمعة في نظم،و هو لا يتصور نصا إلا من خلال النظم الذي عرفه بقوله " اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه و أصوله، و تعرف مناهجه التي نهجت،فلا تزيغ عنها ، و تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها " [17].

لكن طرح الجرجاني لمفهوم النظم تجاوز حدود الاصطلاح الذي كان متداولا لدى غالبية سابقيه –وهو اصطلاح كان يعيش في بيئة النحاة على وجه الخصوص – ليكتسب شكلا منهجيا مدروسا و منظما يعول على البلاغة ، و ينهض على دعائم من النحو و أحكامه ، بل يهدف إلى الذهاب بعيدا بآفاق النحو و تطويع أدواته دون الوقوف عند العلاقات البنيوية المركبة لعناصر الجملة ، فالألفاظ لا تتحقق دلالتها ضمن الممارسة الفعلية للكلام إلا من خلال السياقات المتعددة التي تقع فيها والظروف المحيطة بعملية التواصل سواء كانت هذه الظروف نابعة من مؤثرات ذاتية أو موضوعية ، و من هنا فالنص

هو نظم الكلام وفق لقوانين النحو " و يمثل النص القرآني انصع صورة لهذا النظم "[18] ، فالألفاظ في حركة دائمة من سياق إلى آخر ، ذلك أن " سبيل الكلام سبيل التصوير و الصياغة ، و أن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير و الصوغ فيه ،كالفضة و الذهب يصاغ منها خاتم أو سوار ، فكما أن محالا إذا أردت النظر في صوغ الخاتم . . . كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من اجل معناه أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر أو كلام "[19]، و بهذا يكون الجرجاني قد أعطى للنظم بعدا جديدا يتعدى الترتيب و التنضيد إلى تعيين العلاقات التي تقوم بها عناصر اللغة ، و تضفي عليها دلالات محددة .

لا شك أن نظرية النظم الجرجانية طرح أصيل في النظرية الأدبية العربية أساسها المعرفي ينطلق من تصور نابع من إعجاز القرآن لإثبات إعجاز القرآن فهي جهود نوعية و ابتكاري في خدمة الإعجاز القرآني ، و مهما يكن من أمر فان للجرجاني فضل كبير في الدفاع عن القرآن لتقديمه لأفكار جديدة حول الإعجاز ، فقد انتقل من التساؤل التالي : ما هو الإعجاز ؟ إلى التساؤل الأهم و هو : كيف كان الإعجاز ، و كيف يثبت الإعجاز ؟، و بذلك يكون الجرجاني قد انتقل من موقع التبرير إلى موقع التباهي ، و لم يبق الشعر هو الحجة الوحيدة ، بل تحولت الظواهر القرآنية في كثير من الأحيان كحجج يعول عليها عند دراسة الشعر .

لقد خرق النص القرآني معيارية النمط اللغوي المعتمد لدى علماء اللغة من النحاة ، و قد تفطن الجرجاني إلى أهمية البناء النحوي في إحداث جماليات النص ، إذ من شان التراكيب النحوية بمستوياتها المختلفة إحداث الخصوصية الجمالية من خلال الصياغة و التأليف " لان الألفاظ لا تملك خصوصية إلا من خلال التركيب النحوي الذي تصاغ

فيه"[20] ، أي انه إذا لم تفهم الوظيفة النحوية بمكونات التركيب ، و يفهم سر وضعها على نظم خاص – فضلا عن دلالتها المعجمية – تعسر فهم المعنى فهما كاملا ، و بالمثل إذا لم يكن المعنى المطلوب التعبير عنه واضحا في الذهن بدرجة كافية صعب تحديد بناء أو نظم الجملة التي تستطيع نقل هذا المعنى بأمانة [21].

و مع أن الجرجاني يميل إلى المعنى ، لكنه يعول كثيرا على اللفظ "ومما يجب إحكامه يعقب هذا الفصل الفرق ين قولنا حروف منظومة و كلم منظومة و ذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، و ليس نظمها بمقتضى على معنى ، و لا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد.و أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فهو إذا نظم يعتبر في حال المنظوم بعضه مع بعض و ليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء و اتفق"[22] ، و ما

الألفاظ في حقيقة أمرها إلا علامات لما استقر في الأذهان تكتسب دلالتها و وظيفتها في السياق النحوي الذي يشكل أهم دعامة في حضور الإعجاز في النص القرآني ، لقد كشفت رؤية الجرجاني للنص القرآني عن تبنيه لنظرية النظم من خلال قراءة تنهض على ركيزتين هامتين : تقوم الأولى على المعاني ، و تقوم الثانية على البيان ، يقول شوقي ضيف " ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة ، إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني و البيان علما دقيقا ، أما النظرية الأولى فخص بعرضها و تفصيلها كتابه دلائل الإعجاز ، و أما النظرية الثانية فخص بها و بمباحثها كتابه أسرار البلاغة "[23].

لقد استثمر الجرجاني علوم عصره ، و علوم العصور السابقة ليكشف لنا عن تعامل فريد مع النص القرآني باعتباره المثل الأرقى والأعلى معولا كثيرا

على النحو الذي أحاله إلى نماذج من التراكيب الإبداعية ، مركزا على النص أكثر من تركيزه على الجملة ، أو مركزا على الجملة في إطار النص .

الاعجاز بين البقلاني والجرجاني:

لئن بنى الباقلاني نظرته على إعجاز القرآن من خلال البديع ، ليؤكد أن القرآن على مستوى واحد من البلاغة ، نافٍ بذلك وجود التفاوف بين أجزائه ، فان الجرجاني تعدى ذلك إلى ما هو أوسع و أعمق ، انتقل بنظرية النظم و إعجاز القرآن إلى المجاز حيث يقول : " و اعلم أن كل واحد من صفي المجاز و الحقيقة إذا كان الموصوف به الفرد غير حده،إذا كان به الموصوف به الجملة:وإنا نحدهما في المفرد كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع – و إن شئت قلت في مواضعة – وقوعا لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة ، و هذه عبارة تنتظم الوضع الأول و ما تأخر عنه كلغة تحدث في قبيلة من العرب أو في جميع العرب أو في جميع الناس أو تحدث اليوم "[24] ، فالمجاز عند الجرجاني ينحرف متخذا أكثر من عدول من خلال المواقع المتنوعة التي تحتلها المفردة في التركيب أو الجملة أو السياق ، و لما كانت هذه المواقع متعددة ، متغيرة ، كان لزاما من التعويل على الانتقاء لذي هو سر في تفاوت هذه المواقع ، و تباين دلالاتها بحسب ما تفيده من الأغراض.

فليس المجاز أمرا شكليا ، منظورا فيه إلى ظاهر اللفظ ، بل هو أعمق ، لأنه يراعي حال المنظوم ، و يقتفي في نظم الكلم آثار المعاني ، فيرتب الألفاظ حسب ترتيب المعاني في النفس ، فتتناسق دلالاتها و تتلاقى معانيها [25] ، لذلك اعتبر الجرجاني أن نظم القرآن ينهض على مرات أدناها الوضعية التركيبية اللغوية ، و التي هي مشتركة بين جميع الكلام العربي ، ثم الدلالة البلاغية أو ما يطلق عليها بالمعاني الثواني أو معنى المعنى "وهي

تكثر و تقل في الكلام بحسب وجود الدواعي والمقتضيات من كثرة و قلة، كالدوية فهي تشتمل على عقاقير كثيرة تارة ، و قليلة أخرى ، بحسب ما يحتاجه يحتاجه المزاج لإصلاحه" [26] ، ثم دلالة المذكور ، أو ما يعرف بالدلالة المطوية ، و المطوية ، و هي قليلة في كلام البلغاء كتقدير القول و الموصوف و الصفة نحو قوله تعالى" وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِك يَأْخُذ كُلّ سَفِينَة غَصْبًا "[27]، أي صالحة.

و من أرقى مراتب دلالات النظم القرآني مواقع الجمل التي ترد من باب الاستدراك ،أو السؤال ،أو التعريض، أو غير ذلك، و وجودها في قصائد العرب قليل بسبب قصر أغراضها ، خلافا للقرآن الكريم الذي سمحت أغراضه بالإطالة من جهة التلاوة والتذكير،فتعددت الأغراض والمواقع،نحو قوله تعالى:" وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "[28] بعد قوله تعالى:" أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ "[29] ، فتراكيب " و خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . . ." مفيدة من جهة التعليم و التذكير ، و لأنها جاءت بعد قوله تعالى: " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ... " وقعت موقع الدليل على عدم تساوي عامل السيئة مع عامل الصالحات في نعيم الآخرة الذي هو شِرعة سابغة الأعراف في عرفان المؤمنين.

و جملة القول التي نخلص إليها هي أن هؤلاء الفقهاء و غيرهم من علماء العربية و الشريعة الإسلامية قد أوغلوا في بحث الكثير من المسائل القرآنية اهتدوا بعدها إلى تحقيق غايات معرفية مفيدة، إذ الدلالة القرآنية تتوزعها الخصائص اللفظية وفق معجمية دلالية أرست مناخها ضمن القراءة القرآنية ، قد تجانب دلالات الألفاظ في المعطى الأدبي شعرا كان أم نثرا أي خطبا إلا أنها تبقى إلى جانب تلك المباينة أو المغايرة رافدا معرفيا يثري الوظيفة الأدبية العربية ،ويمدها بمختلف الأدوات والطاقات الإجرائية هي التي لمسناها في

النهضة المعجمية والفقهية والنقدية ، وقد كان من أفضال سيد قطب في ظلال القرآن أنه لامسها خلال منهجه التفسيريّ ، وهو ما أعطى المنهج التفسيري لديه بعدا أدبيا ونقديا هو النقد الثقافي والاجتماعي الذي خلت منه التقاليد التفسيرية القديمة حسب تقديرنا ، وقد كان جديرا بتلك المناجزة بين الثقافتين القرآنية والأدبية أن يحدث ثورة في جوانب اللفظ و المعنى و الأساليب ولم يمنع من ذلك إغراق القول في ارتباط الصورة بالتخييل أو التصوير بما أن الخيال طبيعة فطرية ونزوع روحي مركوز في فطرة الإنسان والتي لا يمكنه التخلص منها أو إنكار جدواها ، خلص الخائضون في منهج الجمع بين قرآنية القرآن وأدبية الأدب إلى نتائج متقاربة مع اختلاف في منهج البحث و أدواته المستعملة في الكشف عن أسرارهما .

تكاد تقتصر دلالة النظم عند بعض الدارسين على خاصية التئام الكلم الفنية وفق قوانين النحو ، يترسخ هذا التلاؤم بين النظم وبين النحو حتى لا يكاد واحد منهما الاستغناء عن نشاط الآخر ، و زاد بعضهم حين لم يقتنع بتلك المزاوجة على قوانين النحو و التئامها شروطا فنية وأسلوبية تجلت في شرط اتساق الحروف ، و انتقاء أوزان المفردات ، و انتظام الحركات و السكنات مما يكون له اثر في سهولة جريان اللسان في بنطقها ، ومناط النظم عند البعض الآخر يتعلق بالكيفيات التي يرد عليها المعنى ، أو ما يستفاد من هذا المعنى سواء تعلق الأمر بالمعنى الواحد ، أو بالمعاني المتعددة .

والواقع أن العناصر اللغوية الدقيقة التي هي أصوات حروف اللغة أو مقاطعها أو مفرداتها والتي هذه في مجملها تبدو غير مساوية لمفهوم الجملة قلنا إن العناصر اللغوية الدقيقة داخلة في عداد العناصر الإيقاعية ،

والعقل مهما أوتي من الفطنة واليقظة لا يستطيع التقاطها واحتسابها في وعي الخطاب أو الكتابة مع ما بين الارتجال والكتابة من فارق وظيفي، غير أن الحسّ أولى بوعي العناصر اللغوية الصغرى أي تلك التي ليس لها قيمة الوحدات اللغوية ، فما كان أدق وأخفى فالحسّ أولى بإظهاره والتعامل معه .

تعرض علماء العربية و فقهاء الدين الإسلامي إلى وجوه الإعجاز و البلاغة والفصاحة ، وكان دليلهم الأول القرآن الكريم لإبراز إعجازه مع ضرورة إخضاع الدراسات في هذا الحقل الدلالي إلى التطوير وترقية المعارف لذلك فإنّ ، " إن قضية الإعجاز قضية جوهرية حيث قدمت آليات في قراءة النص بأدوات إجرائية حديثة قياس إلى عصرها و قد كان أبو عبيدة المثنى أو من فتح هذا الاتجاه في كيفية التعامل مع النص القرآني. . . ، و إذا كان فريق من الاجازيين توجه نحو التعليل البلاغي لإعجاز القرآن ، فان فريقا آخر توجه نحو تعليل إعجاز القرآن بطريقة نظمه ، و من ثمة أصبح النظم مفهوما نقديا مركزيا . . ..،فالنص القرآني معجز بنظمه الذي يخرج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ...."[30].

الهوامش

1ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة و الشعر- تح علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت لبنان 1986 د ط .ص 1.

2محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار الثقافة الدوحة ، د ت / د ط ، ص110.

3عمار ساسي المدخل إلى النحو و البلاغة في إعجاز القرآن الكريم ، عالم الكتب الحديث الاردن 2007،ط1ص68.

4أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن،شرح و تع محمد عبد المنعم الخفاجي ،دار الجيل د ت د ط. ص 19.

[5]الباقلاني إعجاز القرآن ص 53.

[6]سورة إبراهيم 1 .

[7]الباقلاني . إعجاز القرآن ص53.

[8]ينظر عمار ساسي . المدخل إلى النحو و البلاغة في إعجاز القرآن الكريم ص117.

[9]الباقلاني اعجاز القران ص 72.

[10]المصدر نفسه ص 225.

[11]المصدر نفسه ص 86.

[12]ينظر الباقلاني . إعجاز القرآن . ص94/87.

[13]محمد تحريشي ، النقد و الإعجاز . مطبعة اتحاد الكتاب العرب دمشق 2004 . ص 20.

[14]ينظر الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص 48/47.

[15]عبد الفتاح لاشين ، المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم . دار الفكر العربي القاهرة مصر 2003. ط4 ص13.

[16]عبد المالك مرتاض . في نظرية النقد. دار هومة للطباعة و النشر الجزائر 2002 د/ط. ص218.

[17]عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،تح محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت لبنان 1981 د ط . ص 64.

[18] محمد تحريشي ، النقد و الإعجاز ، ص 178.

[19] عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص 196-197.

[20] محمد تحريشي النقد و الإعجاز ص184.

[21] ينظر ممدوح عد الرحمان الرمالي . العربية و الوظائف النحوية دار المعرفة الجامعية 1996 د ط ص 16.

[22] الجرجاني . دلائل الاعجاز ص 40.

[23] شوقي ضيف . البلاغة تطور و تاريخ دار المعارف مصر ط4 ص160.

24عبد القاهر الجرجاني ، اسرار البلاغة في علم البيان ،دار المعرفة بيروت لبنان ، 2002 ط1.ص 303.

[25] الجرجاني . دلائل الإعجاز ص48 و ما بعدها .

[26] محمد الطاهر بن عاشور .موجز البلاغة. المطبعة التونسية تونس د ت ط 1 .ص 9.

[27] سورة الكهف 78.

[28] سورة الجاثية 22.

[29] سورة الجاثية 21.

[30] ينظر محمد تحريشي . النقد و الإعجاز ص 231/227.